

فخام المزور

للقصصيّ الروسي مكسيم جوركي
بقلم الأديب أحمد فتحي مرسى

على ضفاف « الدينير »
وكان أولنا جندياً سابقاً
في الجيش ، رجلاً أحمر
الشعر ، بائناً الطول ،
ضامراً العود ، طلق
اللسان ، يروي الكثير
عن حياة السجون ،
وعيشة الأسار
أما الثاني فكان شاباً
ريق الشباب ، لدن
المعاطف ، ضاوي الجسم ،
وقد أخبرنا عند لقيانا

أنه طالب في جامعة موسكو ، فلم نمن لذلك كثيراً ،
فقد كان كل ما يعنيننا أنه جائع طاوى البطن مثلنا
وكنّا أما نالهم بوجهي الخفر الصامت ،
وحياي الذي لازمني منذ بواكر أيامي ، وإن أطلاق
معك في الحديث عن نفسي فليس هذا مقام ذلك ،
ولكنني أقصر القول على أنني كنت كثير الوتوق
من نفسي ولم أزل كذلك ...

وكنّا أما نالهم الجندي في المقدمة ، أما الطالب
فكان يتخطر وراءنا في ولاء ومهل ، وقد علق بعطفه
شيء بال كان يشبه المعطف في حين من الأحيان ،
وعلى رأسه بقايا قبعة زرقاء قديمة ، وبدأ في قدميه
حذاء عتيق يحيل إلى أنه التقطه من جنبات الطريق ،
أما الجندي فكان يكتب قيصاً وردى اللون ، وقبعة
حربية الطراز ، أما قدماه فكانتا عاريتين شتيتين ...
وهكذا كنّا أنا أيضاً

وطفّقنا نقاب الطرف في أرجاء تلك المروج
الناضرة الجنبات ، فما عادت نواظرننا منها بطائل
ألهم إلا السماء الرائقة الساجية ، التي كانت أشبه
شيء بطبق أزرق هائل قلب على الأرض ، وكان

... ومضينا في طريقنا نبحث الخطى ، بعد
أن خلفنا وراءنا « ميركوب » فهما كالذئب ،
ناقما على العالم أجمع ... فنذا اثنتي عشرة ساعة أوبزيد ،
ونحن ندير الاحظ في نواحي المرج ، ونتقصي النظر
على جنبات الطريق ، عاننا تقع على شيء نفهم به
أودنا ... ولكن أعيننا حسرت عن درك نهاية
ذلك الفضاء المتصل ... وأخيراً قرّرنا العزم على
أن نصل السير ... ولكن إلى أين ؟ ... نعمة إلى
الأمم قليلاً ... فسرنا في صمت وضيق ، وقد
تراخت أعصابنا من الجوع ، وارتفعت مفاصلنا
من التعب ، وقصرت خطانا من الأين
وكنّا ثلاثة عرف كل منا الآخر في سائر ليلى

* تحتفل الأوساط الأدبية في موسكو في هذه الأيام
بذكرى مرور عام على وفاة شيخ أدبها الحديث ، وكنيتها
النايف مكسيم جوركي ... وقد توفي جوركي في مثل هذه
الأيام من العام الماضي . بعد أن قضى حياة بائسة طويلة ذاق
فيها الكثير من ضروب العوز والفاقة والتشرد ، وقد طبعته
هذه الحياة على نوع من الأدب مازة من غيره . وهو افتناهُ
في وصف البؤس وذكر البائسين ، وقد تخيرنا له هذه القصة
لأنها تمثل — على ما نرى — جانباً من عيشته ، وطرفاً
من حياته

— لا شيء هنالك ... لم يبق إلا أن نقضى الليل في ذلك الصقع النائي ... فهيا نجمع بعض الحطب لنضرم النار أيها الرفاق

فانطلقنا نلتقط من المرج ما اعترض سبيلنا من أضفاث الأعشاب الجافة ، وكنا كلما تثنى الجسم لالتقاط عود جاف يساقط على نفسه ، وبأى أن يستقيم ويستوى ثانية كأن به رغبة ملحة إلى الممدد والتطرح ، لما أضواء من الاعياء والنصب والجوع . وهتف الجندي أخيراً :

— لو قَبِضَ لنا الله من هذا المرج ثمة جذر من جذور النبات ، فان من الجذور ما يؤكل ؟ ولكن الحزون كانت تبدو حولنا منبسطة ممهدة خالية من الأشجار ... وكان الليل غاشياً على الكون ، وقد رجفت في ثناياه النجوم الغرارة ، وضياء الطلعة ، وهاجت الجبين ... وعلى حين غرة أقبل الطالب علينا هامساً :

— أيها الرفاق ... إن عن شمالكم رجلاً راقداً في المرج ، فقال الجندي :

— رجل ؟ .. ولم يرقد هنا ؟ لابد أنه مزود بالطعام ... فما يدلج إنسان في تلك الشعاب النائية دون طعام أو شراب ... هيا نذهب إليه أيها الرفاق وتقدمنا الطالب بعينيه البراقة الخضراء ، فسيح الخطو ، حثيث السير ، وكان الرجل جامداً في مرقده لا تحتلج أطرافه ، ولا تطرف عيناه فتطرق إلينا الشك ... وقال الجندي :

— ربما لم يكن هذا رجلاً ... ولكن سرعان ما تبددت الرّيبُ فقد طرق سمعنا صوت متزن الجرس ، متسق النبرات شق غواشي الظلام يقول :

— مكانكم .. وإلا ألهبت رؤوسكم !

الطريق ضيقاً حصباً نلوح على حفافيه أكوام مشتتة من القمح المشيم ، بينما انتثرت في نواحي المرج بضمة أعواد جافة أغفلها منجل الحاصد فلاحت كتلك الشمرات البيضاء المتناثرة في عذارى رقيقنا الجندي ومضينا في سيرنا ، ووجهتنا ذلك الأفق البعيد ، وقد ضرب عليه السحاب لثاماً رائقاً غرّاراً ، فرفع الطالب إليه لظه وأوماً نحوه بينانه قائلاً في تخيلة وزهو :

— تلك ولا شك جبال « الكريمان » التي درسناها

فنظر إليه الجندي محبباً وقال :

— جبال ... أى جبال يا رفيق ؟ تلك سحابة صافية شفّة كاللبن المروق ، ووددت من من نفسي لو كانت حقاً من اللبن المروق فتروى منها عطشنا ، ونبل بها سداناً ... ومضت برهة قبل أن ينبس أحدها ببنت شفة . وأخيراً قال الطالب في لهجة الماتب :

— لقد قلت لكم إنكم تضربون إلى الأصمق الغير الآهله بالسكان ... فقاطعه الجندي قائلاً :

— لقد قلت لنا ... ؟ حقاً هذا دورك لتقول لنا ، فأنت بيننا الضارب بهم أوفر في العلم ، ولكن خبرني يا رفيق أين هي إذن الجمات الآهله بالسكان ؟ فلم يحمر الطالب جواباً ، وسرماً يُرنقُ فوقنا الصمت ، وكانت الشمس قد جمعت خيوطها الذهبية عن الكون ولم يبق منها على الأفق إلا الشفق الأحمر الزهّي ، وقد تمثل فيه الأمل الباسم ، ولفته غلالة وردية شفّة من السحب ، فبدت المروج موحشة صامدة ، وقد هفا عليها السكون ، ورائت فوقها الهداء ، وأخيراً قال الجندي وهو يتنصّص ويتلفت :

رفيقيّ وأخذت أحطم ذلك الخبز الجاف بأسناني
التي كانت على أهبة لمضغ الصخر، وأحسست وأنا
ألوكُ في شدقي تلك اللقيات، أنها مرعان
ما انقلبت دماء دافقة في الجسم فأنستني ما مضى
من الجوع وما مر من الفاقة... ولكن عند
ما ألقيت في فمي بما بقي من فتات الطعام أحسست
جوعاً ممضاً من جديد... وهمس إلينا
الجندي أخيراً:

— إنني على يقين من أن ذلك الرجل معه لحم
أيضاً... وأضاف الطالب:

— وللتثبت من ذلك أقول إن الخبز يفوح
برائحة اللحم....

وكنا جلوساً بمضنا
إلى بعض وقد جمع حولنا
الليل مسوحه السود،
وبسط علينا الصمت
جناحه الشامل حتى عدنا
نسمع ضربات قلوبنا،
ونامة أنفاسنا....
... وكنا جائعين!

انتظروا قريباً

السيد عمر مكرم

مع الأستاذ

محمد فريد أبو حديد

ومضينا نتداول ونتناول في ذلك، إلى أن
أشرت أخيراً على رفيقيّ أن نسلطوا على الرجل
فنأكل ما بقي من طعامه دون أن نمسه بشر؛
وصادف هذا الرأي هوى من نفس الجندي فصاح:

— هيا بنا أيها الرفاق

فقمنا متخاذلين وبعمنا شطراً الرجل ونحن
نتملّ في خطانا، فبأجزنا خطوتين أو ثلاث
خطوات... حتى أصمّ آذاننا دويّ طاق شديد
شق سكون المروج الشامل... فصاح الجندي
بالرجل:

— أخطأت الرمي أيها الرفيق...!

فانتبهنا فإذا الرجل قد انتهض من رقدته وفي يده
«مسدس» صغير، ألجم به أفواهنا وعقل أقدامنا
وأخيراً هتف به الجندي:

— لا تُرْعُ أيها الرفيق... فلن نمسك بسوء
إننا نكاد نصرع جوعاً... فأعطينا شيئاً من الخبز
ولكن الرجل تلبّث في مكانه جامداً لا يبتلع،
شاخصاً لا يطرف... فاسترسل الجندي:

— ألا تسمع أيها الرفيق... فأجاب الرجل
وهو راجف واجف

— حسن...! فصاح به الجندي

— لا تطرق قوادك الريبة أيها الرفيق...

فإننا لا نبي بك شراً

وتبدّت على شفتي
الجندي ابتسامة ظافرة،
لم يثبتها الرجل الغريب
لطول الشقة وبهمة
الليل... وأخيراً قال
الغريب:

— انتظروا... ثم

لوح بيده في الهواء فسقط

هند أقدامنا شيء أسود هوى عليه الطالب بيده،
فإذا به بضع لقيات جافة مُغبرة، سوداء مُشمّنة،
فلم نلق بالآلهة الصفات الأخيرة المتتابعة، بل
جالسنا حول الجندي، وكان قد ارتفق الأرض
وطفق يقسم بيننا الخبز

— هذا نصيبك أيها الرفيق... وتلك

حصتك أيها الطالب... وهذا ما تبقى لي...
كلا، ماهذه بقسمة عدل، أعطني قطعة من نصيبك
أيها الطالب

فانصاع الطالب صاغراً وأعطاه ما طلب،
وجالسنا نأكل في صمت... وقد انفردت عن

وأمرعنا إلى الرجل فألقى الطالب بنفسه على
كيس طعامه . . . وأبحه الجندي نحو الرجل
المسكين وكان قد تطرّح على ظهره وهو واجف
راعش ، فركله الجندي بقدمه قائلاً :

— كان الأولي أن تطلق النار على نفسك
أيها النبي — وهتف الطالب مازحاً :
— لقد عثرت على اللحم أيها الرفاق فتمالوا
نأكل . . .

وجلسنا نأكل من جديد ، وكان الليل حولنا
مثلما بظلامه ، سواد على سواد . . . وعلى حين
غرة سمعنا الرجل المسكين يغمغم من صوت خافت
كانه الأنين :

— عفواً . . . أيها الرفاق . . . كيف لي أن
أعلم . . . لقد أطلقت النار لأن الرعب ملأ جوامحي .
إنني في طريق إلى مقاطعة « سمو لنسلك » وقد
تولتني الحمى عند مغرب الشمس ، فوهي منها
جسمي ، ووهنت أعصابي ، وأخذت على مذاهب
السير . . . إنني أمارس النجارة . . . ولي زوجة
وطفلتان لم ترياني منذ أربعة أعوام خلون . . . لكم
الطعام فكلوا كل شيء . . . أيها الرفاق . . . »
فأجاب الطالب :

— « وهل نحن في انتظار إذنك ؟ » ثم همس
إليها الطالب :

— لا شك أن ذلك الرجل معه نقود أيضاً
فأجاب الجندي :

— إنك دائماً صائب التخمين أيها الرفيق
ثم نهض الجندي قائلاً :

— هيا نضرم النار لننام أيها الرفاق . . .
فالتفت عينا الطالب ثم قال :

— وماذا عن الرجل ؟

— فليذهب إلى الشيطان . . . أما كفي أن أكلنا
طعامه

وتفرقنا من الرج نجمع ما ألقينا من الأعشاب
عندما بغتنا الرجل . . . ثم أشعلنا النار في كومة
الحشيم ، فاضطربت وتوهجت وأنضت ما حولنا
من الظلمة ، فسرى الدفء في الجسوم ، ودب
الكري إلى الجفون . وطرق سمعنا صوت النجار
الخافت يقول :

— أيسمح الرفاق أن أدنو من النار قليلاً ؟
إن عظامي يكاد يفتتها البرد . . .

وأخذنا عايه المطف فسمحنا له بالدنو ، فأتى
يدب على رجليه وقدميه . . وقد أغرق عينيه فيض
من الألم ، وغمر وجهه صبح من الصفرة . . . وبدأ
في لمع النار زائغ البصر ، متكفأ اللون ، ثم جلس
على كذب منا يمرس أطرافه المرضوضة ، ويبسط
أصابه المثناة . . . وبعد برهة سأله الجندي :

— ولم لم تركب البحر مادمت على هذه الحال
من الاعياء والوهن ؟

فأجاب في خفوت :

— لقد نصحوالي أن آخذ طريق البر لأنه
آمن على صحتي . ولكنني لا أستطيع الوصول . .
وسيطوبني الموت في تلك المروج النائية وإن أرى
طفلتى الحبيبتين . . يا إلهي . .

وأخذ الرجل يصيح فنهزه الجندي قائلاً :

— « كفي . . . صدعت رؤوسنا أيها النبي »
وصحت أماً به :

— « لا تمكر علينا صفو النوم أيها الرجل »
ثم أضاف الجندي :

— أسمع أنت ؟ .. أظن أنك ستتناول عطفنا بعد أن أطلقت علينا النار ؟.

وصمت الرجل وصمتنا ، .. واستأق الجندى على ظهره . وتطرح النجار على كومة من العشب ورقدت أما عن يمينه ، واضطجع الطالب إلى يساره وهو يتشاءم ويتناوم وبعد برهة هتف الجندى وهو يتأمل في السماء :

— ما أروع الليل الساكن .. وما أبهج السماء الصافية .. تأمل أيها الصديق . إنه ليخيل إلى أن الله خلق السماء دائراً لتلك الأرض الناعسة الغافية . ما أجل تلك الحياة الطلقة الحرة أيها الرفيق .. إنه قد يكتنفها الجوع . وقد يكدرها البرد ولكننا فيها أحرار طلقاء ... نضرب في ذلك الفضاء الرحيب لا إمرة لأحد علينا ولا نهى ، بل نحن سادة أنفسنا . لقد كاد يقتلنا الجوع فيها أياماً ... وها نحن أولاء قد أكلنا وروينا .. ورقدنا تطالما بلحظها النجوم الفوانئ كأنها تقول لنا : « خفضوا عليكم جأشكم أيها الرفاق .. واضربوا في فضاء الله الواسع وتعلموا وتدبروا ولا تحفلوا بأحد . »

وصمت الجندى قليلاً ثم قال :

— كيف أنت أيها الرفيق النجار .. لا تكن غاضباً علينا لأننا أكلنا طعامك ... ماذا كنت تريدنا أن نفعل ومعك طعام وليس معنا شيء ... ثم إنك ستتمر غداً على سوق « بيركوب » فتبتاع منه ما شئت من الطعام .. منذ كم أخذتك الحمى ؟ ومضى موهن من الليل كانت تحمل الرمح خلاله إلى همس الجندى وجواب النجار ، ثم غشى الصمت على الكون ، وسكن هزيم الرياح في الأفق وعقد السكرى أهداب الجفون ...

— تنبه ... ! ييقظ أيها الرفيق ... دعنا نذهب سريعاً

فانهضت صرماً من النوم فرأيت الجندى واقفاً بجانبى يستحشى إلى السير وقد تكفأ لونه وتوجف قلبه ، وكانت شمس الصباح الضاحية قد لآلت نواصي الأعشاب في المرج ...

وتلفت يمينا فاذا النجار ماقى على ظهره ممزق الثياب وكان أزرق الوجه فاغر الفم جاحظ العينين وقد أغرقتهما الرعب ، وتصلبت فيهما المحاجر ... وهتف الجندى أخيراً :

— أما كفأك تأملاً ... هيا امض بنا ... فقلت في تردد :

— أهو ... أهو قتيل ؟ ... هل الطالب ... فقاطعتني قائلاً :

— « ومن غيره ... ربما أنت أو أنا »

واسترسل قائلاً :

— أهذا أثر العلم في نفسه ... أغاية العلم أن يترك ريفية على هذه الحال ... أما والله لو علمت طوية نفسه قبل ذلك لسفكت دمه ... هيا بنا أيها الرفيق ، يجب أن نذهب عن هذا المكان قبل أن تلمحنا عين إنسان .. أقام أنت .. إنهم سيكشفون أمره اليوم ويترسمون خطانا ... » ثم وضع يده في جيبه قائلاً :

— ولكن هذا مسدسه متى ... فصاحت به :

— ألقه في الطريق ...

— كلا إن ألقيه . إنه شيء ذو قيمة

ومضينا نحث السير فذكرت في الطريق طفاتي النجار المسكين فقلت :

— هذا كثير على زوجة الرجل وطفلتيه

فأجاب :

القلب الحب والمطف ، وأحمل له في طوايا النفس
التجلة والاحترام ، وقد مرنا سويا الى اقليم «كارا»
ثم افترقنا الى حيث لا لقاء . فسألته :

— أو لم تمطفك الذكري بعد ذلك الى ذلك
النجار المسكين ؟
فضحك ثم قال :

— ما الذى تريدنى أن أذكره فيه ، أو أستشعره
لأجله ... اننى ان ألام على ما حدث له ، ولن
تلام أنت ولن يلام أحد غيرنا ... فان يجدى
اللوم ... لأننا كلنا أشباه وحوش ضارية .
المكتوبة أحمد فنى مرسى

واجب !

ما الذى يمنحك من أن توفر لنفسك
القوميسيون ومصاريف المحل و ... الخ إذا
وجدت أمامك مورد مصرى يستورد لك الصنف
من أشهر فبارك ألمانيا ويسلمها لك رأساً بتكاليفها
فقط

مريب

قلم حبر الكتابة سفنكس القلم الأنيق
ذو الريشة الذهب المضمونة عيار ١٤ مثله في
السوق يباع بثمانين قرشا . أرسل فقط ٤٠ قرشا
إلى حسين حسنين شارع الطيران نمرة ٣١ مصر
الجديدة وللخارج زيادة خمسة قروش يرسل
إليك الطالب فى الحال

مطلوب وكلاء فى الشرق والأقاليم للقلم
ولأصناف أخرى مما نستورده من الخارج م

— دع هذا الآن ... وامرّع فى سيرك ...
عج بنا الى اليمين فأغاب الظن أن البحر فى تلك
الجهة

وحدنا عن الطريق فتركت زمبلى فى عرض
المرج ، وصعدت على وهدة عالية كانت على كشب
مدا ، وأشرفت بناظرى على ما مضى من الطريق ،
فسمعت رفيق يقول :

— علام تنظر أيها الرفيق .. أدخل فى روعك
أن الحياة ستدب فى جسمه ثانيا .. وصمت الرجل
قليلا ثم عاد يقول :

— ما أمهر والله ذلك الطالب الذى غافلنا
وخادعنا ... ان الناس أيها الرفيق يوغلون فى الشر
كلما أوغلوا فى العلم ... يوما بعد يوم ، وعاماً إثر
عام ...

وصمت الرجل فماد الصمت يبسط جناحيه
على الكون ، وبدت الشمس تتلألأ فى صدر السماء ،
وضرب الأفق دائرته الزرقاء على المروج فتابعنا
السير دراكا ...

وأخيراً قال رفيق الجندى وهو يخرج من
جيبه لفافة من التبغ الرخيص :

— إننى جائع أيها الرفيق

— وما عسانا تأكل هنا ؟

— تلك مشككة أخرى ...

وختم الراوى قصته — وكان رجلاً أشيب
الرأس يرقد الى جوارى فى المستشفى — بهذا القول :
— ومنذ ذلك الحين توثقت وشائج المودة
بينى وبين ذلك الجندى لما هو عليه من خلوص
النية ، وسماحة الخلق ، فكنت أكن له فى شفاف